التشاؤم واليأس في قصائد أبي العتاهية

أ.م.د.كوران صلاح الدين شكر
جامعة صلاح الدين– كلية اللغات

الملخص

يتناول البحث قصائد الشاعر الزاهد أبي العتاهية ونظرته المتشائمة الى الحياة واليأس منها وكيفية معالجته للمشاكل الاجتماعية والسياسية في نسق معين بعيد عن التعقيد والغموض وفي أسلوب بسيط قريب المأخذ. ولقد أشرنا الى حديث الشاعر عن الدنيا وزوالها و زيف متاعها وزينتها, فتشاؤم الشاعر من مثيل نوعين فهو متشائم من الحياة وديمومتها للناس أجمعين من جهة و متشائم من عمل الناس في الحياة للآخرة من جهة أخرى لذلك نجده عادة يتهرب من الحساب جزا كان أو عقابا.

المقدمة

اسماعيل بن القاسم مولى بني عنزه ولد في عين التمر سنة ١٣٠ هـ، ثم أنتقل إلى الكوفة، و نشأ فيها حتى أصبح من أهم شعراء عصره, مال إلى العلم والأدب ونظم الشعر حتى نبغ فيه، ثم انتقل إلى بغداد، وأتصل بالخلفاء، فمدح المهدي والهادي والرشيد. أما سبب كنيته بأبي العتاهية، ففيه قولان: أحدهما أن الخليفة المهدي قال يوما له: "أنت إنسان متحذلق معتته فاستوت من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته، وسارت له بين الناس والقول الثاني : "كني بأبي العتاهية إذ كان يحب الشهرة والمجون والتعته". نشأة الشاعر بين طبقات الدنيا ووقف على أساليب حياتهم وثبات أمثالهم, ومعانيهم وما تتلخص فيه تجاربهم من عبارات في نفسه و غريزته ثم قيامه على تحصيلها ليكمل من ذلك ما نقصه, كما حصل في حمله زاملة المخنثين في الكوفة ليحصل على ألفاظهم. أما في الشطر الثاني من حياته عندما انقلب على نفسه والقديم من عاداته وسلك طريق الزهد دون أن يتوغل في الصوفية و حياتهم مما جعل القصائد الزهدية عنده مثار الشك والمناقشة دائما عند الآخرين.[١]

بما أن حياة الإنسان مليئة بالمتاعب و الآلام و أنها لا تخلو من المحن و الأزمات و الدنيا محفوفة بالبلايا و المصائب و أن الإنسان يلاقي الآلام و الشدائد في حياته و لا شك أنه يتعرض في الحياة للثنائيات المتضادة كالأمل و اليأس، الخير و الشر، الضياء و الظلام، السرور و الحزن، الوحشة و الأنس، الموت و الميلاد، العسر و اليسر، النور و الظلمة و قليل من الناس هم أولئك الذين يصلون مرحلة الكمال و تنضج عقولهم في الصراع مع هذه القضايا أو أحيانا يبوء بالفشل. و لكن المنظار الذي يرى الإنسان الحياة به، إذا تغلبت الظلمة عليها و اسود زجاجه و رأى كل شيء أسود فهذا هو التشاؤم، و عكس ذلك هو التفاؤل.

بعد أن أوغل الشاعر في الخطيئة و أرهق نفسيا وجسديا وبعد أن مل الحياة ومباهجها أصبح شاعرا زاهدا يعكس كل ذلك في قصائده , بذلك أصبح يعكس الواقع مرتين, فهو بعد أن كان شابا ماجنا يتحمل حاملة المخنثين أصبح شاعرا زاهدا هادئا و رزينا إنعكاسا لواقع حياته الى جانب ذلك فهو كان يعيش في مجتمع أصبح فيه الزهد إنعكاسا للأوضاع الإجتماعية والإقتصادية خصوصا بعد الأستقرار النسبي والإنتعاش الإقتصادي من جانب آخر. ومن الأسباب الأخرى التي دعت الشاعر الى الزهد و الخوف من الموت والحساب تاثره بفلسفات وعقائد قديمة مختلفة[٢] سيما وأن الحكم العباسي خفت عصبيته القبلية لكنه لم يتنازل عنها اذ نرى الأعاجم الى جانب العرب في الحكم[٣]. الى جانب كل ذلك كان عصر الشاعر مسرحا لتفاعل المؤثرات في تكوين المجتمع الإسلامي, اذ كان لتدفق الأموال على الدولة العباسية والأموية من قبل بسبب الفتوحات الإسلامية الأثر الواضح في تقسيم المجتمع الى الطبقات الثلاث: العليا- والوسطى- والسفلى وكانت توجد داخل هذه الطبقات عناصر مختلفة في مكانتها الإجتماعية وفي الدور الذي يقوم به في مجتمعها.

وفي العصر العباسي شهدت الحركة الثقافية حركة عقلية ضخمة رفدتها روافد كثيرة أولها الثقافة العربية الأصيلة التي تتمثل في الشعر والقرأن الكريم والحديث وفقههما و علوم اللغة العربية, كما أصبح التراث الشعري القديم لأول مرة مدونة في ذلك العصر فكان هذا العمل دلالة على بدء استقرار الحياة الأدبية وتطورها بفعل عوامل المختلفة. خصوصا بعد انتهاء حركة الفتوحات حيث أخذت الثقافة العربية تهضم ثقافات الأمم الأجنبية التي استولى العرب على بلادها و أهم هذه الثقافات الفارسية واليونانية ثم الهندية والحق أن الثقافة العربية بعد أن هضمت هذه الثقافات الأجنبية المختلفة لم تصبح ثقافة محدودة بمكان أو زمان أو جنس[٤]. والعصر الذي عاش فيه الشاعر كان عصر الإعتزال والفلسفة والشك والزندقة، وفيه: تفتحت أبواب من الجدل والحوار في مشاكل الحياة وصلة الإنسان بالقضاء . كثرة من يـــقتل على الإلحاد والزندقة ولكنهما يشيعان، ويشيع معهما القلق والحيرة في الحياة. ويختلف الشعراء في تعاملهم مع الحيرة والقلق فمنهم : من يـــغرق حيرته وقلقه في الخمر والمجون. ويتحول كثير منهم إلى التنفير من الحياة ومتاعها، فليس فيها ما يـــرضي أو يسر. مثل:(أبو العتاهية)، فالحياة عنده شر وهي لا تستحق حبا ولا إقبالا ، بل الكره والإعراض . كل هذا كان له الأثر الواضح في تكوين شخصية الشاعر الزهدية المتشائمة التي تغذيها اليأس من الحياة والواقع المرير للمجتمع العباسي في تلك الفترة.

التشاؤم[٥] واليأس[٦]:

هناك عوامل كثيرة قد ساعدت على تكوين الأرضية الخصبة لدخول الشاعر الى عالم الزهد, ولكن زهد الشاعر لم يكن سلبيا بمعنى الهروب التام من الحياة, اذ بالرغم من أنه ودع حياة اللهو والمجون والغزل, وحطم كؤوسه, وهجر ملاعب لهوه وعبثه, فقد كان يحن اليها, بين الفترة والفترة, لكن سرعان ما يردع نفسه, ويعود الى الزهد تشاؤما لا فكرا وفلسفة ونجد لذلك أمثلة كثيرة من الشاعر في الديوان عندما يتحدث عن الدنيا وزوالها وزيف متاعها وزينتها في ثورة لا مثيلة لها عند شاعر عاش حياة لاهية بعيدة عن الدين والآخرة. فتشاؤم الشاعر من مثيل نوعين فهو متشائم من الحياة وديمومتها للناس أجمعين من جهة و متشائم من عمل الناس في الحياة للآخرة لذلك نجده عادة يتهرب من الحساب جزا كان أو عقابا ويكرر ذلك في مواطن كثيرة من الديوان وكأنه أصبح ميؤسا من حاله ودينه ودنياه. و تحدث الشاعر كثيرا في أشعاره عن الإنسان و عن سر وجوده كما تحدث عن عجزه عن معرفة هذا الكون الغامض المعقد و يعتقد أن حياة الإنسان مجهولة غامضة مليئة بالأسرار و الألغاز التي لم يكن في إمكان أحد أن يكشفها حتى الآن و مضمون شعره اليأس و العجز عن حل هذه الأسرار و الألغاز و الرجاء لا طائل تحته, فهو عندما ترك قول الشعر في عهد المهدي زج به في سجن الجرائم فيقول في ذلك الحدث[٧]:

تعودت مس الضر حتى ألفتـــــــــه وأسلمني حسن الـــــعزاء الى الصبر
وصيرني يأسي من الناس واثقا يحسن صنيع الله من حيث لا أدري

التشاؤم واليأس من الحياة وما فيها بدا على الشاعر مما وقع فيه من الاضطراب والقلق فهو يختارالتعود على الضر والاستسلام الى الصبر وألفته لما وصل اليه الوضع ولكن الى جانب ذلك ترك باب الرحمة هاربا من العباد الى المعبود لكي يجعل لنفسه تسلية وتنفيسا. فالصورة واضحة عند الشاعر اليأس والتشاؤم من العباد وثقة برحمة الله وقوته وعفوه. هناك قصائد كثيرة للشاعر تجسد فيها الحالة المزرية لعامة الناس مكونا بذلك صورة متشائمة لما فيه الناس من بؤس وفقر ومرض وجهل[٨]. فهو يقول في أحوال الرعية وشأنهم[٩]:

وأرى غموم الـــــــدهر را ئحة تمـــر وغـــــادية
وأرى المراضع فيه عن أولادها متجـــــافيـــــة
وأرى اليتـــــــــــامى والأرا مل في البيوت الخالية

من القصائد الفريدة التى قام فيها الشاعر بمعالجاته الاجتماعية فهو يقوم بتقديم النصائح الى الخليفة لما وقع فيه المجتمع من الحالة السيئة في تصوير رائع تبث فيها رائحة اليأس والتشاؤم لكي تكون القصيدة ذا وقع أكثر فهو عندما يرى غموم الدهر لايجعل مكانا

للشك من الحالة المزرية, فمن نتاجات غموم الدهر ملازمة الأرامل واليتامى للبيوت الخالية وتجافي المراضع عن أولادها فهو لايكتفي بهذا بل يذهب الى أكثر من ذلك لاثارة شفقة الخليفة ازاء ما آلت الية حياة الناس من فقر, فهو عندما يتحدث عن حياة عامة الناس يشير الى وهامة الشأن والوضع. فهو شأنه شأن الناس حظا من الدهر ومصائبه والا فلا قيمة لأكثر مواعظه ان لم تكن صادرا من أعماق نفس مثقلة بهموم الدنيا من كل النوع[١٠]. ومما يعتاده القارئ في زهديات أبي العتاهية التركيز على فكرتين أساسيتين دار حولهما معظم شعره في الدعوة الى الزهد أولهما- المصير الإنساني ومآله الى الفناء[١١], حيث يقول[١٢]:

جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا وبنوا مساكنهم فما سكنـــــوا

فكأنهم ظعن بها نزلـــــوا لما استراحوا ساعة ظعنوا

كما قلنا مصير الإنسان والموت كانا من أهم الموضوعات التي دارت عليها قصائد الشاعر سيما وأنه كان شاعر الزهد البارع في هذا الميدان بدون شك, فالنبرة المستعملة في هذين البيتين تدل على مدى اهتزاز الشاعر نفسيا وعدم استقراره خوفا من المصير والموت فالناس يجمعون فالجمع للديمومة بدون شك لكن الجمع عند الشاعر فقط لاشباع الجياع فالناس يبنون المساكن لكن لايسكونون فيها لأنهم راحلون لامحال من هذه الدنيا هذا ان دل على شيء يدل على اليأس من الدنيا و ما فيها مع النظرة التشاؤمية للمستقبل حيث يقول في الموت[١٣]:

لاتأمن الموت في طرف ولانفس وان تمنعت بالحجاب والحرس

فما تزال سهام الموت نافــذة في جنب مدرع منها ومــترس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لاتجري على اليبس

الموت نهاية كل شئ وموطن اليأس والتشاؤم في قصائد الشاعر فهو لايأمن الموت لاعلى نفسه ولا على الخليفة أو الآخرين. اذ لاسبيل للنجاة من هول الموت وساعته فالداء عند الشاعر الموت والدواء الاعداد لذلك ولساعته لذلك يضرب لنا مثلا نادرا من نوادره فالذي يرجو النجاة بسفينة لايبحر على اليابسة طبعا. وكما نعلم أن التذكير بالموت والجزاء بقدر مايدل على خوف الشاعر من النهاية وعواقبها يدل على التعب النفسي واليأس الذي يحيط بالشاعر, فالتذكير بالموت من الموضوعات التي دارت على ألسنة الزهاد و أهل التصوف في العصر العباسي فالموت هو النهاية التي يقف دونها المراء وليس لأحد دونه قوة أو يأوى منه الى ركن شديد أو يجد دونه مصرخا[١٤]. كان أبو العتاهية شاعر العصر الأول في ميدان ذكر

الموت ووعظ به أهل عصره ولاشك أنه أبرع في تناول الموضوع وأبعد مدى وأكثر تفصيلا عن الآخرين وما اجتمع في ديوانه لم يجتمع في ديوان شاعر آخر[١٥]:

لدوا للموت وابنوا للخراب فـكلكم يصير الى ذهـاب

لمن نبني ونحن الى تراب نصير كما خلقنا من التراب

فالاعداد هنا للموت الذي يليه الخراب والتراب والفناء فهو من أجل ذلك يدعو الناس للاعداد لذلك. ومن الملفت للنظر أن الشاعر قد أكثر من ذكر الموت والتراب والقبر والخراب والفناء و ليجسد بذلك اليأس والخوف من المجهول .هذا النمط من الشعر المعروف بشعر الزهد يؤكد على حتمية الموت ويدعو الى تجنب ملذات الحياة مفضلا عليها انكار الذات والاستغراق في التأمل, ويتضمن العالم الذي يخلقه هذا النمط من الشعر تناقضات عنيفة فالبشر فانون , ضعفاء[١٦]وكأنه أراد بذلك أن ينفس عن نفسه الميؤس التعب. ففي مدرج حديثه عن الدنيا وشأنها نجد اليأس والتشاؤم ينعكس بهذا الشكل[١٧].

حلاوتها ممزوجة بـمرارة و راحتهـا ممزوجة بعناء

فلا تمش يوما في ثياب مخيلة فانك من طين خلقت وماء

عندما يشير الشاعر الى زوال حلاوة الدنيا ومتاعها يستعمل المقابلة بين الضدين في بيت واحد من أجل أن يكون الوقع أكثر تأثيرا وقوة على نفس المتلقي فالحلاوة ممزوجة بضدها المرارة والراحة بالعناء. لابد أن يكون الشاعر متشائما الى حد بعيد والا ما الغاية من المقابلة بين الحلاوة والمرارة وجعل الحلاوة مثار النقاش والتأثير, ويعود ليؤكد عمق التأثير النفسي لليأس والتشاؤم بالتذكرة مما خلق الإنسان من طين وماء, فهو يقول أيضا[١٨]:

وما هو الا يوم بؤس وشدة ويوم سرور مرة ورخاء

فالمقابلة هنا قائمة بين شطري البيت الواحد فالبؤس يقابله السرور والشدة الرخاء. فالبؤس والشدة والفقر كلها من دواعي اليأس وعدم الأستقرار سيما وأن التشاؤم الذي كان يحيط بالشاعر كان يجعل منه انسانا متذبذبا في مطالبه وخياراته فالقناعة والعمر دفع به أحيانا الى زج الأمل والتأمل باليأس والتشاؤم من الحياة وما فيها في حين واحد ولكن مع ذلك يرجع الشاعر في الصورة النهائية والشكل العام للصورة الفنية الى اليأس الباعث للتشاؤم[١٩]:

طلبت فما ألفيت للموت حيلة ويعيى بداء الموت كل دواء

فالموت لامفر منه ولادواء للفرار بل وأكثر من ذلك فهو داء لكل دواء أليس .هذا هو اليأس والعجز والتشاؤم فهو رغم محاولته لايقدر على شيء فالعمومية قائمة في المعنى العام في بيته الشعري هذا[٢٠].

اليأس يحمي للفتى عرضه والطمع الكاذب داء عيـــا
ما أزين الحلم لأربابـــه وغايـــة الحلم تمام التقـــــى
والحمد من أربح كسب الفتى والشكر للمعروف نعم الجزا

وصل به اليأس والخوف من الحياة والموت حدا قد فاق مسعاه نفسه الى الدفع بالآخرين للاحساس بنفس المرارة واليأس من الحياة, هذا مما دفع به أن يكون الشاعر الأول في ذكر الموت والقبر وعواقب الحياة المترفة وغير المترفة فالشاعر لاينتهي الأمر به من اليأس الى ذكر الموت والقبر بل يذهب الى أبعد من ذلك في كثير من الأحيان فالأمر لا ينتهي بمجرد الموت والانتقال الى دار الخلود, فهو عندما يحاور أهل القبور والقبر نفسها, فما ذلك الا لحث المقبلين عليها للتزود لما بعدها بالتقوى والبر , والعمل الصالح, وتطهير النفس وتحصينها بالعفة والقناعة والصدق والوفاء والحب لأن عكس ذلك في نظره يكثف وحشة القبر, ويثقل خطى الساعي الى عفو ربه[٢١].

كما قلنا فيما سبق كان حياة الشاعر عبارة عن انعكاس حقيقي لقصائده من حيث ما عاشه وشعر به من حرمان وغبن ويأس فهو على الرغم من أنه اشتهر بالزهد, فأنه يستجدي الهادي استجداء رخيصا مباشر ساذجا[٢٢] حين يقول مخاطبا اياه[٢٣]:

يا أمين الله ما لـــــــي لست أدري اليوم مالي
لم أنل منك الذي قد نـــــــال غيري من نـــــــوال
تبذل الحق وتعطـــي عن يمين وشمـــــــــال
وأنا اليائس لاتنـــــــــ ظر في رقة حالي

حتى عندما يستجدي الشاعر نجده بائسا ومثقلا بهموم الحياة فالاحساس بمرارته وما يعيشه من البؤس واضح في هذه الأبيات الشعرية غير الزهدية فهو من أجل استمالة قلب الهادي يلفت أنضار ممدوحه الى رقة حاله والبؤس الذي يعيشه. فالشاعر بقصائده كان يعكس الوضع المتقلب لعامة الشعب في العصر العباسي ويعبر عن وضعه النفسي أصدق التعبير, وعلى العموم يركز في شعره على حقيقة الفناء الإنساني, وحتمية الموت, وعلى أن الحياة لا طائل من ورائها, وهي محض حالة عابرة لا جدوى من اطالتها[٢٤]. وعلى العموم أن الفكرة الأساسية في شعر أبي العتاهية الزهدي هي فكرة مصير الإنسان في الحياة ومصيره بعد الموت وتتردد هذه الفكرة في شعره بصورة واسعة وهو مشغول بها شغلا كبيرا يعبر عنها في صور شتى وبأساليب متعددة يطوف حولها حينا ويتغلغل في أعماقها حينا آخر[٢٥].

سلك أبو العتاهية في عرض آرائه في مشكلة المصير خطا منتظما مستقيما فهو يعرض لكل ما يمكن أن يخطر على ذهن من يبحث في هذه المشكلة في ماهية الحياة وسر حب الإنسان لها؟ والموت, وماذا بعده؟ وأكثر ما نقف عند أبو العتاهيه في حديثه عن الموت منظران منظر سكرات الموت ومنظر القبور وهو يتخير دائما لها الأوضاع التي تثير في النفس التشاؤم والاكتئاب والوحشة والرهبةو الفزع, أنظر الى قوله في القبور[٢٦]:

أتناسيت أم نسيت الـــــــمنايا أنسيت الفــراق للأولاد
أنسيت القبور اذ أنت فيها بين ذل و وحشة و انفــراد
اي يوم يوم السبـــاق واذ انت تنادي فما تجيب المنادي
اي يوم يوم الفـــــــراق واذ نفسك ترقى عن الحشا والفؤاد

من أجل أن يجسد الشيء في ذهن المتلقي يستخدم الشاعر أسلوب الاستفهام وفي الحين نفسه يتعجب من تناسي أو نسيان الموت, نسيان الفراق والقبر, فالقبر عند الشاعر ذل ووحشة وانفراد. كل هذه التعابير تجسداليأس والتشاؤم عند الشاعر فالقبر عنده حفرة من حفر الجهنم. ويستمر في تصوير المشهد المرعب للموت وما بعده من سباق ونداء وفراق والأسئلة حولها تبقى دون جواب. ويقول في نفس المعنى[٢٧]:

نغض الموت كل لذة عيش يا لقومي للموت ما أوحاه
عجبا!انه اذا مات ميـــــت صد عنه حبيبه و جفاه
حيثما وجه امروء لـــــيفوت الموت, فالموت واقف بحذاه
انما الشيب لابن آدم نـــــــاع قام في عارضيه, ثم نعـــــــاه

مشهد الموت كما قلنا قد أخذ حيزا كبيرا من ديوان الشاعر , فهو يتعجب من جفاء الحبيب والأصدقاء عند الموت , فالصورة واضحة من منا لا يعلم الموت فالتعبير بعيد عن التعقيد والقافية لينة سهلة مع تشخيص مستحب في البيت الثالث والرابع للموت والشيب: تشخيص الموت برجل صامت يقف بازاء الإنسان كالشبح الرهيب, وتصوير الشيب نذيرا ينعي على الإنسان حياته. ومن قصائده الرائعة في تصوير الموت والإنسان ما قاله في زوال العمر ولشدة اعتزازه بفكرة الموت, واطمئنانه اليه واعتماده عليه في حل جميع مشكلاته النفسية والاجتماعية نراه يسأل يوما عن أجود شعره فيجيب[٢٨] قائلا في هذا البيت الشعري[٢٩]:

والناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن

لغة الشاعر واضحة جدا اذ لاينظر للموت نظرة المشفق منه على نفسه أو أبناءجنسه, بل انه على العكس من ذلك يستعديه عليهم ويختار لهم أشد أنواعه ابادة, ألا وهو الطحن وكثير ما وفق في تصوير الموت وتصوير نفسه توفيقا ملحوظاحيث يقول:[٣٠]

أضيع من العمر ما في يدي وأطلب ماليس لي في يـــد
أرى الأمس قد فاتني رده ولست على ثقة من غد
واني لاجري الى غـــاية استقبل الموت من مولدي
وما زلت في طبقات الردى أصعد في مصعد مصعـد
فيوشك عما قليل أكـــون منهن في البرزخ الأبعـــد

مشهد رائع وتجسيد للواقع مع تحليل لنفسية الإنسان, فاليأس والعجز والتشاؤم الفكرة الأساسية التي تدور عليها الأبيات الشعرية, فالإنسان يضيع ما بيده, ويطلب من غيره المستحيل والإنسان حائر بين عجزه عن رد ما فاته, وبين عجزه عن معرفة ما هو آت...فالموت مستقبل كل الشئ وقابض للبدايات والنهايات, فهو بعد أن أظهر عجز الإنسان ويأسه من النهاية فالتشاؤم حاكم للموقف فما بعد الموت طبقات من الظلمات فوقها طبقات. استعمالات الشاعر فاقت حد التشاؤم من المستقبل وما فيه من العمر يقابله طلب مافي يد الآخرين في اشارة الى الذل والسؤال عما سوى الله, فالأمس فات و الثقة فقد مع الجري الى المجهول مستعيرا لذلك بالموت و الظلمات فالشاعر عادة كان يثير موضوعات الابتعاد عن الحياة ومباهجها والدعوة الى التحقير من شأنها والتفكير في الموت والنظرة الى الحساب والعقاب والعودة الى التقى والأيمان ومن العجب ان الذين اقبلوا على الزهد وسعوا اليه وقالوا فيه شعرهم هم انفسهم الذين اسرفوا على انفسهم وعلى مجتمعهم اثما ومعصية وانحرافا ويرى بعض الدارسين أن الدولة هي التي عملت على انتشار ظاهرة الزهد, لان الزهد لم يكن مقابلا للزندقة أو الصوت المواجه لها[٣١].

اتصلت معاني الشعر في العصر العباسي بالحياة والموت وجاءت زاخرة مزيدة فالدنيا مذمومة لايداوم لها ظل ولن تلبث ان تمضي وتزول والموت يلم بكل واحد وهو مشهد يتكرر في كل حين ليتعظ البشر فيأخذون من أنفسهم لأنفسهم ويستعدوا لساعة الرحيل وانما الخلود والبقاء لما ادخر المرء لآخرته جنة أو نار والكل رهن بما كسب[٣٢]. فذموا الدنيا وكشفوا عن زيفها وذكروا بما ينبغي لبلوغ الباقية من طاقات وأعمال صالحة, ويستفيض أبو العتاهية في وصف الدنيا والابانة عن زيفها وضآلة شأنها وذمها اذ يقول[٣٣]:

أحمد الله على كل حال انم الدنيا كفيء الظـــــــلال

انما الدنيا مناخ لركب يسرع الحث بشد الرحال

أجل الله اذا جاء لايؤخر ولايتقدم منه كل هذا يعني أن الزاهد في الدنيا حقا هو الذي يصد عن الدنيا ويعزف عن طيباتها ويلقى الموت بنفس مطمئنة ضامئة الى لقاء الله. هذه هي حقيقة الزهد وهذا هو مفهومه عند المسلمين فهل كان الشاعر في زهده كذلك؟ مقبلا الى الموت ظامئا الى لقاء الله؟ الواقع أن الشاعر لم يكن زاهدا في الحياة وان صد عن طيباتها, بل كان على عكس من ذلك حريصاعليها كل الحرص متعلقا بها متكالبا عليها ومن ثم كان يفزع من الموت الذي ينزعه من بين أحضانها وسيحول بينه وبين ما يشتهيه من جمع الثروة واكتناز المال اذن فزهده لم يكن في الحقيقة عن نزعة دينية مشرقة بل كان زهدا ماديا مظلما تسيطر عليه نزعة اقتصادية وضيعه. مما دفع بنفسية الشاعر الى التشاؤم الاكتئاب والوحشة والرهبة والفزع, وعلى العموم يركز في شعره على حقيقة الفناء الإنساني, وحتمية الموت, وعلى أن الحياة لا طائل من ورائها, وهي محض حالة عابرة لاجدوى من اطالتها ومن ثم الحكمة للبشر العاجزين بالالتزام بأوامر الله عبر التقوى والعمل الصالح. أنظر الى قوله في الموت وصعوبته[٣٤]:-

ألا يا أخانا ان للموت طلعـــة وانك مذ صورت تقصد قصدهـــا
وللمرء عند الموت كرب وغصة اذا مرت الساعات قربن بعدها
لك الخيرأما كل نفس فانهـــــا تموت وان حادت عن الموت جهدها
تسلمك الساعات في بعض مرها الى ساعة لاساعة لك بعدهـــــا

و يعيش الشاعر في العالم الذي رسمه لنفسه و العالم الذي فرض على نفسه و هو سر التألم و التمزق في حياته. و من أجل هذا العالم المليء بالأحزان و الآلام الذي رسم الشاعر لنفسه،و الحياة فيه جافة باردة و لا معنى للعيش فيه يعتقد بوجوب استقبال الموت لذلك جعل النصح والوعظ منهجا عاما في عموم شعره, وعلى هذا الأساس تكون عباراته نصائحا متوالية مذكرا فيها بالموت وماله من الموعد مع الإنسان مذ أن يصور ويولد وسكرات الموت صعبة على الإنسان فالساعات بتواليها تقربك لهذا الموعد الصعب , فجهد الإنسان لا تبعده عن الموت وكربه حتى تأتي على الإنسان ساعة تبلغ به اليأس مبلغا لا رجعة فيه.

للشاعر قصيدة في زوال الدنيا وأهوال الموت, فأكثر فيها من أدوات الاستفهام والتعجب, مستعينا فيها بالأمثلة من تأريخ الشرق, للاشارة الى وهامة الوضع[٣٥]:

المنايا تجوس كـــل البـــلاد والمنايا تفني جميع العبـــاد
لتنالن مـــن قـــــرون أراها مثل ما نلن من ثمود وعاد

هن افنين من مضى مـــن نزار هن أفنين من مضى من أياد
هل تذكرت من خلا من بني سا سان أرباب فارس و السواد
هل تذكرت من خلا من بني الأصـــ فر أهل القباب والأطـــــواد

سرد تأريخي رائع لزوال الملوك و الدول وفنائها اذ لا شيء تبقى على حالها فالموت والفناء بطبيعة حالها تعكس الحالة النفسية للشاعر من اليأس والتشاؤم وأعجب ما في شعر أبي العتاهية الغزارة والخصب وانقياد الشعر له وحضور المعاني, وقدرته على جعل كل شيء مادة للشعر, قريب التناول, وحسن التصويت, بعيد عن الكلفة, وعلى هذا الوجه من السهولة والقرب كان الشعر ينصاع له و تأتيه المعاني , فيتهيأ له بذلك منه الموضوع والصورة[٣٦], فهو باستخدامه للاستفهام والتعجب عبرة عن قلقه والاضطراب النفسي الذي عاشه في حالة اليأس والتشاؤم فهو يتسأل تكرارا عن مصير السابقين ممهدا لفكرة الفناء للكل وموت العباد دون استثناء لاسيما مصائر كبار القوم من الموك والأباطرة والقياصرة والأكاسرة.

عند دراستنا لقصائد الشاعر نجد بأن المعاني والأفكار مأخوذة من الفكر الإسلامي وعلى الخصوص من القرآن الكريم وهي عامة تستخدم لأجل الموعظة الحسنة وطلب الكف عن الدنيا والتفكير في الآخرة. ونرى سعة الخيال عند الشاعر حتى أصبحت هذه السمة من أبرز سمات الشعر العباسي وكان لأبي العتاهية القدح المعلى فيها وكان أغلب سمات الخيال عنده مأخوذة من التراث الإسلامي[٣٧]:

أذكر معادك أفضل الذكر لاتنسى يوم صبيحة الحشر
يوم الكرامة للألي صبروا والخير عند عواقب الصبر
في كـــــل ما تلتذ أنفسهم أنهارهم من تحتهم تجـــــري

وهناك دقة وجدة في أفكار أبي العتاهية فأخذ في تعميق المعاني, كما أخذ في تفصيلها وترتيبها, وساعده على ذلك اطلاعه على القرآن والسنة ومعرفته بالثقافات الفارسية والهندية والبوذية. الافراط والتهويل في ديوان أبي العتاهية تظهر مدى نبذ الشاعر للحياة ومحاسبة النفس وعتابه والافراط في ذلك ما هي الا من اليأس والتشاؤم:[٣٨]

مضى النهار ويمضي الليل في مهل كلاهما مسرع فينا على مهلـــــــــــه
والريـــــح مقبلـــة طـــورا ومـــدبرة والدهر يقرع بين الناس في دولة

ويبرز في شعره أيضا استخدام الأدلة المنطقية فأبو العتاهية اضافة الى معرفته بالفلسفة اليونانية والفارسية و تمرس أساليبها كان متأثرا بالقرآن والثقافة الإسلامية[٣٩]:

لكل شيء معدن وجـــــوهر وأوسط وأصغر وأكبر

وكل شيء لاحق بجوهره أصغره متصل بأكـــبره

وكان أسلوبه سلسا يستخدم الألفاظ السهلة والعذبة حتى خلت عباراته من التكلف والتعقيد والواقع أن أبا العتاهية كان مطبوعا على قول الشعر, حيث قيل له كيف تقول الشعر؟ قال: ما أردته قط الا مثل لي, فأقول ما اريد وأترك ما لا أريد[٤٠]. ومن الطبيعي أن يطبع أسلوبه في الزهد بطوابع الأسلوب الوعظي من التكرار وكثرة النداء والاستفهام وقد انتهج هذا المنهج ليصف لنا فناء الدنيا وعدم بقائه للسابقين من الملوك والعظماء والجبابرة ويقول في ذلك أين ذهبوا شأنهم شأن الفقراء والعامة من الناس فأنهم يموتون اينما ذهبوا[٤١]:

كم من ملوك سادة وقع الدهر عليهم فانقلب

وأنظر الى قول الشاعر ايضا:[٤٢]

كم رأينا من عزيز طويت عنـــــــــه الكشوح

وكذلك تغلب النزعة الخطابية على بعض قصائده وهي ترمي الى الوضوح والتقدير, وخصوصا في الصيغ الانشائية والألفاظ والجمل المكررة, والمواقف التأريخية التي هي مناط العظمة والاعتبار. وفيما سلف من شعره نلمح بجلاء الأمر والنهي والدعاء وغيرها من الصيغ الانشائية[٤٣]:

سبحان ربك مـــا أراك تتوب والرأس بشيبه مخضوب

سبحان ربك ذي الجلال اما ترى نوب الزمان عليك كيف تنوب

ولم تخل زهديات الشاعر من الاشارات التأريخية تارة يذكرنا بعاد وثمود وتارة أخرى يذكرنا بآل ساسان وكسرى وأخرى يذكرنا بداود وسليمان وقارون وهامان وفرعون ذي الأوتاد, وغير هؤلاء, لنرى ما صنعت بهم الأيام ويتسم أسلوب الشاعر بالسلاسة والعذوبة والسهولة. وان اللفظ العادي والمعنى السوقي كان يقع في أذن الشاعر فلا يلبث أن يستحيل في قلبه الى شعر موزون, كأنه قد مسه السحر وكانت هذه العملية تتم في سرعة نادرة.[٤٤] ولقد وفق الشاعر في استخدام هذه المعاني وكان حسن العرض لها, تساعده في ذلك قوة طبع نادرة. فكانت العامة به معجبة, والى جانب السهولة والبساطة نجد في قصائده متانة في غير اغراب أو وحشة وسهولة في غير ركاكة أو ابتذال, فتجتمع له فخامة الأسلوب ورقة الحاشية, مع سلامة العبارة وقوة الجرس هذا ما تميز به الشاعر في سهولة أسلوبه وتعابيره, ونستطيع أن نقول بأن الأفكار والمعاني عند الشاعر مأخوذة من القرآن الكريم و الفكر الإسلامي.

الحال لم يكن مختلفا مع الألفاظ فقد أراد الشاعر لشعره الذيوع والانتشار بين طبقات الشعب فصد عن الغريب وجنح الى الألفاظ السهلة التي لاتبعد الذهن ولاتخفى على الجمهور

وقد حقق بذلك ما يرجوه لنفسه ولشعره من الانتشار الشعبي ولم يشأ أبو العتاهية أن يساير المدرسة التقليدية, بل تخير لنفسه مذهبا يساير طبيعة العصر وأذواقه وهو مذهب السهولة والشعبية[٤٥]. وأبرع في استعماله لالفاظه فهو كما أشرنا أثر على أن تكون ألفاظه واضحة لعامة الشعب لكن نجد قوة موسيقى كلماته بين شدة وارتخاء حسب الموقع[٤٦]:

هي النفس لا أعتاض عنها بغيرها وكل ذوي عقل على مثلها يحنو

لها أطلب الاخرى فان أنا بعتها شيء من الدنيا فذاك هوالغبـــــــن

ويبرز دور الألفاظ في تشكيل الجملة الشعرية في طبعه التكرار وطريقة استخدام الشعراء له, لأنه جزء من الجملة الشعرية وأثر الشعراء في تحديد ألفاظهم, واستخدامهم التكرار لبيان معانيهم, فأبو العتاهية استخدم التكرار أداة من أدوات التشكيل الجمالي داخل نطاق الجملة الشعرية, لذلك فالتكرار يقوم بوظيفة جمالية اظافية لوظيفة توكيد المعنى ووضوحه. ولم يقف استخدام الشاعر عند تكرار الصفة وانما تعداها الى تكرار الفعل منه[٤٧].

وقد يأتي التكرار باستخدام الصفة المؤكدة للفعل وقد يراد بها اعطاء صورة أوسع وأشمل لحالة المرء الحليم سواء كان في وضع الرضا التام أو في صورة الغضب حيث تعطينا تتابعا في الصورة وأبو العتاهية حين يمثل فضيلةالحلم, يطالبها من لفظة المصدر لكونها الأساس الاشتقاقي لها, مستعطفا بالله ان يكسبه هذه الفضيلة لانها فضيلة ما بعدها فضيلة[٤٨]:

فيارب هب لي منك حلما فأنني أرى الحلم لم يندم عليه حليم

لهذا قالوا في أبي العتاهية أنه أقدر الناس على وزن الكلام, حتى أنه يتكلم بالشعر في جميع حالاته ويخاطب به جميع أصناف المجتمع[٤٩]. فأنه فنان أصيل ذو مقدرة فائقة على قول الشعر, يعبر عن كل ما يريد دون أن نشعر بأنه يتكلف أو يتصنع أو يلاقي أي عناء أو مشقة, ويصوغ كل ما يريد في ذهنه من معان وأفكار بسهولته ويسره, فهو ينظم الشعر كما لو كان يتكلم[٥٠]. وفي جوانب من مواعضه استعمل الألفاظ الواردة في القرآن الكريم وبشكل واسع, هذا مما زاد من شهرة قصائده وانتشاره بين العامة والخاصة ويتجلى هذا التأثير عندالتفكير في الأمم الدائرة والقرون الخالية وفي الموت وسكراته:[٥١]

يا عجبا كلنا يحيد عن الحين وكـــــــــــل لحينه لاق

كأن حيا قد قام نادبـــــه والتفت الساق منه بالساق

هكذا يخلو شعر أبي العتاهية من رسالة جديدة, ويفتقر الى فلسفة خاصة. وانما يعكس لنا روح الشرق الدينية من احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة[٥٢] فمعاني الزهد كثيرة عند أبي العتاهية، وتتكرر في كثير من قصائده ؛ ذكر الموت والحياة والفناء والحساب والثواب والعقاب

،والقبر والتوبة، والحض على مكارم الأخلاق وهي معان يغلب عليها التشاؤم واليأس والقنوط والتنفير من الحياة وما فيها من ملذات أحلها الله ، وتقل فيها مشاعر الأمل والتبشير بالجنة وما فيها من نعيم

الخاتمة

هناك أمور عدة ساهمت في بناء شخصية الشاعر التي تنعكس بوضوح في قصائده وخصوصا في مجال اليأس والتشاؤم من الحياة وحتى بعد الممات. فهو في أكثر الاحيان يلقي بجميع المسؤليات على ما أصاب نفسه من انطواء, وما ترسب فيها من الآم على مجتمعه فراح يهاجمه ويتمنى لها الفناء. الى جانب ذلك نجده كثيرا ما يلقي بالائمة على الدهر فيما آل اليه من سوء وانهيار وبعض الأحيان كان يحمل نفسه المسؤولية الأساسية لما وصل اليه من اليأس. اذ كان لفشله في التجارب العاطفية التي تعرض لها الأثر الواضح في تكوين هذه الشخصية الغريبة من نوعها, فان التجارب الإنسانية الكثيرة يستطيع المرء ان يدرك الأثر النفسي السيء الذي يتركه على الإنسان فالفشل اذا تكرر على الأفراد والجماعات يجعل صاحبه مكبوتا .

وكان مذهبه الفلسفي في الشعر حرية التفكير، وكان أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالتبعث، ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد. ولكن عند دراستنا لقصائد الشاعر نجد بأن المعاني والافكار مأخوذة من الفكر الاسلامي لأجل الموعظة الحسنة وطلب الكف عن الدنيا والتفكير في الاخرة.

ومعاني الزهد كثيرة عند أبي العتاهية ، وتتكرر في قصائده ؛ ذكر الموت والحياة والفناء والحساب والثواب والعقاب ، والقبر والتوبة ، والحض على مكارم الأخلاق .وهي معان يغلب عليها التشاؤم واليأس والقنوط والتنفير من الحياة وما فيها من ملذات أحلها الله ، وتقل فيها مشاعر الأمل والتبشير بالجنة وما فيها من نعيم في الواقع أن الشاعر لم يكن زاهدا في الحياة وان صد عن طيباتها, بل كان على عكس من ذلك حريصاعليها كل الحرص متعلقا بها متكالبا عليها ومن ثم كان يفزع من الموت الذي ينزعه من بين أحضانها وسيحول بينه وبين ما يشتهيه من جمع الثروة واكتناز المال اذن فزهده لم يكن في الحقيقة عن نزعة دينية مشرقة بل كان زهدا ماديا مظلما تسيطر عليه نزعة اقتصادية وضيعه. مما دفع بنفسية الشاعر الى التشاؤم الاكتئاب والوحشة والرهبة والفزع, وعلى العموم يركز في شعره على حقيقة الفناء الإنساني, وحتمية الموت, وعلى أن الحياة لا طائل من ورائها, وهي محض حالة

عابرة لاجدوى من اطالتها ومن ثم الحكمة للبشر العاجزين بالالتزام بأوامر الله عبر التقوى والعمل الصالح.

اقترب أبو العتاهية في شعره من العامة ، وهجر جزالة الألفاظ ، وترك الوقوف على الأطلال ، فكان شاعرا مطبوعا غزير الشعر يتناول المعاني القريبة من العامة بألفاظ سهلة واضحة متجنبا الغرابة والتعقيد والتكلف وقد اعتبره الكثير متقدما في الشعر.

الهوامش

[١] مختار الاغاني, ابن منظور محمد بن مكرم, تحقيق ابراهيم الابياري, مطابع عيسى البابي الحلبي وشركاءه, القاهرة-مصر ١٩٦٥, ٧٧/١.

[٢] أبو العتاهية من الرفض الى القبول , خليل شرف الدين , منشورات دار و مكتبة الهلال , بيروت ١٩٩٧ , ص ٢٩.

[٣]تأريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول, شوقي ضيف, دار المعارف بمصر-١٩٨٣, ص ١٩٥.

[٤] إتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري, د. محمد مصطفى هدارة, دار المعارف بمصر ,ص٤١.

[٥] شأم:الشؤم: خلاف اليمن. ورجل مشؤوم على قومه , والجمع مشائيم نادر, وحكمه السلامة؛ أنشد سيبويه لأحوص اليربوعي:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة, ولا ناعب الا بشؤم غرابها

رد ناعبا على موضع مصلحين ,وموضعه خفض بالباء أي ليسوا بمصلحين معناها واحد , وقد تشاءموا به.أنظر لسان العرب للامام العلامة ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور,دار الصادر بيروت طبعة الجديدة محققه,ص٧/٨ .

[٦] يأس, اليأس: القنوط. وقيل: اليأس نقيض الرجاء, يئس من الشئ ييأس ويِيئس؛ نادر عن سيبويه, ويئس ويؤس عنه أيضا, وهو شاذ , قال: وانما حذفوا كراهية الكسرة مع الياء وهو قليل, والمصدر اليأس واليآسة واليأس وقد استيأس وأيأسته وانه ليائس ويئس ويؤوس ويؤس, والجمع يؤوس. أنظر لسان العرب, ٣٠٥/١٥.

[٧] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, تحقيق الدكتور شكري فيصل, دار الملاح للطباعة والنشر , سوريا - دمشق , ١٧٥.

[٨] الادب العباسي (تحليل نصوص الادبية) , أحمد علي محمد , منشورات جامعة البعث كلية الاداب والعلوم الانسانية , ٢٠٠٥, ص٨٥.

[٩] أبو العتاهية أشعاره وأخباره:٤٤٠.

[١٠] أبو العتاهية من الرفض الى القبول, ١٥٢.

[١١] شعرية التفاوت مدخل لقراءة الشعر العباسي, محمد مصطفى أبو شوارب, دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر, الاسكندرية, الطبعة الاولى ٢٠٠٧, ٦٣.

[١٢] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٣٨٩.

[١٣] نفس المصدر, ١٩٤.

[١٤] التيار الاسلامي في شعر عصر العباسي الاول, د.مجاهد مصطفى بهجت , وزارة الاوقاف والشؤن الدينية, العراق-بغداد, ٥٣٠.

[١٥] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٣٣.

[١٦] مقدمة للادب العربي, روجر آلن, ترجمة رمضان بسطاويس- مجدي أحمد- فاطمة قنديل, المشروع القومي للترجمة, المجلس الاعلى, ٢١٠.

[١٧] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٣.

[١٨] نفس المصدر, ٣.

[١٩] نفس المصدر, ٣.

[٢٠] نفس المصدر, ٨.

[٢١] أبو العتاهية من الرفض الى القبول, ١٥٨.

[٢٢] شعرية التفاوت, ١٨.

[٢٣] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٦١٩.

[٢٤] مقدمة للأدب العربي, ٢١٢.

[٢٥] تأريخ الشعر في العصر العباسي الاول, ٩٠.

[٢٦] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ١١٣.

[٢٧] نفس المصدر, ٤١٤.

[٢٨] اسطورة الزهد عند أبي العتاهية, د.محمد عبد العزيز الكفراوي, دار نهضة مصر للطباعة والنشر, الفجالة- القاهرة, ٦٤.

[٢٩] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٣٨١.

[٣٠] نفس المصدر, ١١١.

[٣١] في الادب العباسي الرؤية والفن, عزالدين اسماعيل, دار النهضة العربية, ٢٩٤.

[٣٢] التيار الاسلامي في شعر عصر العباسي الاول, ٥١٣.

[٣٣] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٣٢٤.

[٣٤] نفس المصدر, ١٣٠.

[٣٥] نفس المصدر, ١١٢.

[٣٦] تأريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري, نجيب محمد البهيتي, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع, الطبعة الرابعة, ٣٩٧.

[٣٧] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ١٧٢.

[٣٨] نفس المصدر, ٣٣٦.
[٣٩] نفس المصدر, ٤٤٩.
[٤٠], الاغاني, أبو فرج الاصفهاني, دار الثقافة, بيروت-لبنان, ١٩٥٥, ٤|١٥.
[٤١] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٣٠.
[٤٢] نفس المصدر, ٩٨.
[٤٣] نفس المصدر, ٣٠.
[٤٤] تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري, ٣٩٦.
[٤٥] معالم الشعر وأعلامه, ٢٣٦.
[٤٦] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٣٦٦.
[٤٧] نفس المصدر, ٤٤٦.
[٤٨] نفس المصدر, ٣٤٧.
[٤٩] دراسات في الادب العربي, ١٥٣.
[٥٠] تأريخ الادب العربي في العصر العباسي, ١٠١.
[٥١] أبو العتاهية أشعاره وأخباره, ٥٨٩.
[٥٢] أمراء الشعر العربي في العصر العباسي, أنيس المقدسي, الطبعة الثامنة ١٩٦٩, دار العلم للملايين, بيروت- لبنان, ١٥٧.

Pessimism and Desperation in Abo Alqtahyaa's Poems

Asst. Prof. Dr. Goran Salahaddin Shukur

College of Languages- University of Salahaddin

Abstract

This research paper deals with the poems of the ascetic poet: Abo Alqtahyaa and his pessimistic and gloomy view towards life, and how he manages to solve the social as well as the political problems in a very simple and clear diction. Throughout his poems, the poet tackles with the falsity and disappearance of life. Being pessimistic, the poet, on one hand, holds a very gloomy view about life, while on the other hand, he is totally hopeless person even about the duities of human beings in the day of resurrection. In addition, he used to escape from punishment and recompense which are clear in his poetical works. He que stioned Man and his existences in this world and how he was hopeless to know this complicated universe.